

## المتفقون وتأبيد الصراع

شارون(1) .. هامش الموت الواسع

### المتوكل طه

ليس حُباً بالدم المسفوح وألوانه المفجعة يعارض الكثيرون فكرة دولة علمانية تضم الفلسطينيين واليهود على كامل فلسطين التاريخية، فالأمر يتعدى الرغبات والنوايا الحسنة، ووجهة النظر التي قد تنطلق منها مثل هذه الدعوة .

وليس رغبة معارضة في إدامة صراع يمكن إيجاد نهاية له بمصالحة تاريخية – إذا تخلّت الدولة العبرية عن جوهرها العنصري ودورها الوظيفي بشكل كامل .

إنّ أصل الدعوة الأخرى لتأبيد الصراع مع الدولة العبرية هو برنامج يفرضه الواقع وتبيّنه مسالك المواجهة وحقائقها .

ولأنّ «إسرائيل» ليست مجرد «مشروع إسكان» إنساني قام من أجل حلّ «مشكلة الإقامة» التي يعاني منها أبناء الجيّنات التائهون في المعمورة ... فثمّة وظائف عديدة ألحقت بهذا «الغزو» منها حماية مصالح الغرب (أمريكا بالتحديد) وتواصل استلابها للثروات العربية (النفط) ولتحتطيم أي برنامج «وحدوي» قد ينشأ في العالم العربي، بل ولإبقاء الأمة العربية «أمماً» متغايرة ينهشها القمع والجهل والفقر والتغريب .

ولو أنّ «إسرائيل» قامت لحل مشكلة «السكن» لليهود، ولم يحكمها الفكر الكولونيالي العنصري، لتمكّنت من العيش والتماهي مع محيطها، ولقبلنا الأفكار الداعية إلى إقامة دولة علمانية يعيش فيها اليهودي جنباً إلى جنب صاحب الأرض الأول العربي . بمعنى أنّ أصحاب دعوة إقامة دولة علمانية يتعامون عن حقيقة جوهر الفكر الجهنمي الذي يقود إسرائيل ويتحكّم في خطواتها، والتي من تجلياته كل هذه الدموية في القمع والقتل والتجويع والتهويد واستمرار الاحتلال الفاشي .

ولعل انتخاب «جزار» مثل شارون رئيساً لوزراء إسرائيل يعني أوّل ما يعني انتصار وبقاء الفكر

الصهيوني الشوفيني وتحكمه في لُحمة هذا الكيان، كما يعني أن الشارع الإسرائيلي غير ناضج ومستعد للسلام لأنه محشو حتى النخاع بذاك الفكر العنصري؛ من عسكريه حتى مثقفه، فالعسكريون قُتلة يجوسون أرضنا بأيديهم الملتخه بدم الأطفال والعار، ومثقفو إسرائيل - حتى اليساريون منهم - يوقعون العرائض احتجاجاً ورفضاً «لحق العودة» للفلسطينيين ويؤيدون شارون في بقاء القدس عاصمة موحدة وأبدية لإسرائيل، ولا يعارضون بقاء السرطان الاستيطاني في «يهودا والسامرة»؟!!

ولعل في انتخاب مثل هذا النموذج لقيادة «الدولة» يشكل نهاية مؤلمة لبعض الأوهام التي ظهرت هنا أو هناك حول تحوّل ما في هوية «إسرائيل» .

شارون، ومنّ على شاكلته، سيظلّ رئيساً لوزراء الدولة العبرية، بل إن شارون شخصياً والآن يتمتع بنقاط قوة تعينه على البقاء أهمها:

- أنه محاط بالقوى الرئيسية (الأحزاب) في إسرائيل، مما نفى وجود معارضة حقيقية يهودية في الطيف السياسي الإسرائيلي .

- تلازم حكومة شارون مع إدارة أمريكية جديدة، أكدت أنها أكثر إخلاصاً لإسرائيل من الإدارات السابقة (تصريحات رئيس أمريكا ووزير خارجيته حول نقل السفارة الأمريكية إلى القدس)، وعدم قدرة الإدارة الأمريكية الجديدة على «فرض» أو تنفيذ أية قرارات أو اتفاقيات.

- إعفاء حكومة شارون من التزامات حكومة باراك، بما يخص التوصل إلى نقاط متقدمة في المفاوضات النهائية .

غير أن حكومة شارون هذه تعاني من ثغرات أهمها:

- أن انتخاب شارون شخصياً (قاتل ولم يكن مَرحباً به في بعض العواصم الدولية) هو دليل خوف، مثلما أن حكومة «الوحدة الوطنية» هي حكومة خوف وانكفاء، ويكفي للتدليل على ذلك أن الإسرائيليين اختزلوا آمالهم وراهنوا على انتخاب قاتل مثل شارون، تقطر يداه ولسانه بدم عربي فصيح .

- غياب البرامج من حكومة شارون، عدا أنها حكومة أشخاص (بيرس - شارون) وأحزاب تبحث عن «قيادة» وعوامل رسوخ وتماسك، وأنها حكومة غير جاهزة للتفاوض لأنها لا تمتلك برنامج سياسي تفاوضي مقنع للطرف الفلسطيني، بل إنها حكومة متعاكسة (شارون - بيرس) .

ولا يغيب عن بال أحد أن أمريكا وشارون يلتقيان في كثير من المصالح الاستراتيجية والآنية، والآن نراهما متقاطعين عند مسألة الملمة الأنظمة العربية ضد العراق والمدّ الإسلامي، وبالتالي إطلاق يد شارون القاتلة ضد الانتفاضة والشعب الفلسطيني للتركيز على حصار العراق وإخماد روحه، كما أنهما ملتقيان تماماً في أنه لا مجال لحلّ نهائي قريب (فلسطيني - إسرائيلي) وأن المتاح حلّ مرحلي وبالتالي بقاء الاحتلال تحت مسّميات عديدة .

سيحاول شارون، بدايةً، مدّ يد الاتفاق مع القيادة الفلسطينية على اتفاقية «منع الاعتداء» أي وقف الانتفاضة، وفي اللحظة التي ستفرض فيها القيادة الفلسطينية ذلك - وهذا طبيعي وواجب ومن حقها - فإن شارون سيذهب بعيداً في القتل والحصار والاعتقال والتجويع، وسيقوم شخص «نظيف دولياً»

مثل بيرس بتبرير أفعال شارون الدامية، للعالم! وستأمر الإدارة الأمريكية الأنظمة العربية وحلفاءها في أوروبا وآسيا للتضييق على السلطة الوطنية الفلسطينية مالياً وسياسياً .  
والآن، لسنا في معرض تقديم تحليل سياسي هنا، بقدر ما نحاول أن نذهب إلى تلك الزاوية من الجهد الذي نظن أنه يعيننا أولاً، كمؤسسة ثقافية فلسطينية تخوض المواجهة مع مؤسسة العدو وبرامج الغزو الثقافي التي تطلقها هذه المؤسسة نحو بلادنا .

إن خلق جبهة ثقافية فلسطينية تشمل المؤسسات (الرسمية والأهلية)، تتصل بالجبهات العربية المماثلة لتمكين وتحصين مقاومة التطبيع، بكل أشكاله، مع الحفاظ على حرية الجدل والاجتهاد ... والحق الديمقراطي الذي يكفل حرية التعبير وإبداء الرأي ... مثل هذا التوازن في البناء والهجوم سيسمح، في نظرنا، لتأسيس مشروع ثقافي عربي مقاوم وقابل للنهوض، على قاعدة استحالة التعايش مع الدولة العبرية ما دامت على حالها، وما دام خيارها شارون وأمثاله من الجرارين .

(1) أنظر ورقة العمل التي أعدها عدد من الباحثين الفلسطينيين، وتم تقديمها في ورشة العمل التي دعت إليها حركة فتح في الضفة الفلسطينية في منتصف آذار 2001، نقتبس منها لهذا الهامش، للتدليل على ما ذهبنا إليه :

#### سيرة قاتل

رضع ارئيل شاينرمان (الذي عرف بشارون لاحقاً) حليب الكراهية للعرب والنظر إليهم على أنهم أعداء يجب حماية نفسه منهم منذ طفولته المبكرة في مستعمرة «كفار ملال» بالقرب من كفر سابا قبل نحو 73 عاماً .. وقد جاهر لأصدقائه من الفتية على أن القاعدة التي يجب على اليهودي الالتزام بها: «اقتل من العرب أولاً من يرغب في قتلك ثم اقتل من سيفكر في قتلك في المستقبل» .

في العام 1945 انضم إلى عصابات الهاجناه وتحديداً في وحدة الدفاع عن المستوطنات اليهودية، ليوقف في العام 1953 على رأس الوحدة (101) التي أسسها بن غوريون بهدف القيام بهجمات انتقامية ضد أهداف مدنية وعسكرية عربية رداً على هجمات الفدائيين العرب.

وبالفعل فإن المذبحة الأولى التي سجلت في سيرة شارون الذاتية كانت في تشرين أول 1953، إذ هاجمت الوحدة (101) المكونة من خمسين ضابطاً وجندياً تساندها وحدات من سلاح المظلات والمشاة قرية «قبية» قضاء رام الله ونسفت منازل المدنيين العزل على رؤوس ساكنيها.. وكانت الحصيلة سقوط 69 شهيداً معظمهم من الأطفال والنساء والمسنين .

وأطلق حكام إسرائيل يد شارون بترقيته بعد فترة وجيزة على مجزرة قبية وتعيينه قائداً لكتيبة مقاتلة تتكون من الوحدة (101) وبعض الوحدات العسكرية الأخرى في الجيش الإسرائيلي قامت بسلسلة هجمات على أهداف مدنية وعسكرية مصرية وسورية وفلسطينية وأردنية، وصف الصحافي الإسرائيلي عوزي بنزمان رداً الفعل عليها في كتابه «شارون: قيصر إسرائيل» الذي نشر في العام 1985 بقوله: «هذه العمليات التي تشبه عملية قبية إلى حد بعيد أثارت ذهول الرأي العام في العالم

وإسرائيل وحتى الجيش الإسرائيلي الذي أعطى الأوامر بشننها لتحقيق أهداف محددة وواضحة، إلا أن شارون حقق الأهداف الموضوعية لها وأهدافه الشخصية، أيضاً. وقد أعلن الرئيس المصري جمال عبد الناصر في أعقاب هذه العمليات بأنه من المستحيل الوصول إلى سلام مع إسرائيل» .

وعشية هجوم شنته الكتيبة التي يقودها شارون على مخيم البريج في غزة العام 1953 عارض أحد الجنود الإسرائيليين ويدعى «شموئيل فالاح» الخطة على اعتبار أنها تستهدف مدنيين عزل، وعندها كلفه شارون بنسف بيت أحد الضباط المصريين بالقرب من المخيم في حين هاجمت الكتيبة المخيم وسقط 15 مدنياً أعزلاً يشكل الأطفال والنساء معظمهم. وفي جلبة التقييم في أعقاب الهجوم احتج جنود في الكتيبة المهاجمة على تحديد المدنيين كأهداف لعمليات عسكرية متساثلين: «هل هذا هو العدو؟ هل العدو لاجنون تعساء من النساء والأطفال؟ «أجاب شارون» النساء العاهرات العربيات القتلى كن سينجنن مزيداً من المتسللين عبر حدودنا الذين سيقتلون اليهود وإذا لم نقم بمثل هذه العمليات العسكرية فإن المخيم سيصبح أعشاشاً تعج بالمجرمين والقتلة» .

بنين بن ستمي فرز المجان ماهريغكةرز لمجا مهور تم شاتمون الذاتية تدلل وبوتنوح تم اتجرجل أمين للمبادئ العامة للتربية التي نشأ عليها في أن العربي لا يستحق الحياة ويجب إبادته .

وفي الأيام الأخيرة من حرب الاستنزاف الإسرائيلية-المصرية على قناة السويس سطع نجم شارون مرة أخرى إذ شن حملة من العمليات الانتقامية ذات طابع ردعي ضد الحركة الفدائية الفلسطينية في قطاع غزة عندما كان يشغل منصب قائد المنطقة الجنوبية .. هدم عدة آلاف من المنازل في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في قطاع غزة لتوسيع الشوارع بهدف تعزيز أمن دوريات الاحتلال المؤلفة والراجلة .. اعتقل المئات من الشباب الفلسطيني وأبعدهم إلى الأردن ولبنان .. نفى قيادات وطنية إلى شبه جزيرة سيناء .. اعتقل ستمائة من أقارب مناضلين فلسطينيين بمن فيهم نساء وأطفال وأودعهم معتقلاً صحراوياً في جنوب سيناء .. حصد إرهاب شارون المنظم الذي حاز على رضى وتأييد قاداته حياة 104 مناضلاً فلسطينياً في أربعة شهور، فقط (بين حزيران وكانون أول العام 1971) في حين كان مجموع الذين حصد الاحتلال أرواحهم 179 مناضلاً استشهدوا في الفترة بين عامي 1967 و 1971

## شارون وحرب لبنان

بعد مضي نحو شهرين على توليه منصب وزير الدفاع أصدر شارون أوامره لرئيس الأركان بإعداد خطة مفصلة لخوض حرب لبنان بالأهداف التالية :

- \* وقف القصف الفلسطيني للمستوطنات اليهودية في شمال إسرائيل .
- \* القضاء على وجود منظمة التحرير الفلسطينية سياسياً وعسكرياً في بيروت .
- \* دعم قوات الكتائب اللبنانية بمساعدتها على تشكيل حكومة في لبنان تقوم بتوقيع اتفاقية سلام مع إسرائيل .

\* إبعاد القوات السورية من لبنان وتحديداً من منطقة بيروت .

وبقيت الخطة تنتظر التنفيذ إلى أن قامت القوات الفلسطينية بقصف مكثف ومركز للمستوطنات الإسرائيلية في الجليل في 4 حزيران 1982 رداً على قصف الطيران الإسرائيلي الوحشي لتجمعات سكانية فلسطينية ولبنانية وأهداف عسكرية فلسطينية وللقوات التقدمية اللبنانية في أعقاب إصابة سفير إسرائيل لدى بريطانيا شلومو أرغوف بجراح بسيطة نتيجة لهجوم نفذته مجموعة فلسطينية منشقة عن منظمة التحرير الفلسطينية كما قالت مصادر في المخابرات المركزية الأمريكية والمخابرات البريطانية .

وفي السادس من حزيران تدفقت قوات الغزو الإسرائيلي عبر الحدود اللبنانية متجهة نحو الشمال تحت اسم «حملة سلامة الجليل» وبهدف معلن لخلق منطقة عازلة بعمق 40 كيلومتراً عن الحدود اللبنانية-الإسرائيلية لوقف القصف الفلسطيني .

وبعد نحو أسبوع على علو صيحات الحرب في إسرائيل تحت شعار «أريك ملك إسرائيل» وارتفاع في شعبيته من 48,9% إلى 59,6% أعلن رافائيل ايتان رئيس أركان جيش الغزو آنذاك عن مقتل 176 جندياً إسرائيلياً في العمليات العسكرية، ليتبعه رئيس فرع القوى البشرية في الجيش الإسرائيلي موشيه نائيف أن حصيلة المعارك مقتل 214 جندياً إسرائيلياً .

بدأ الرأي العام بالشك في أن حكومته لا تقول الحقيقة وبدأت المظاهرات تجوب شوارع تل أبيب مطالبة بالكشف عن أهداف الحرب ومداهمها وتقديم مجموعات من الضباط والجنود من الذين يخدمون بالاحتياط بعرائض لمناحيم بيغن تطالبه بوقف الحرب والسماح لهم بإداء خدمتهم العسكرية في إسرائيل .

وسارع شارون إلى اتهام اليسار بتخريب جهود الحرب واتخذ سلسلة من الإجراءات لإخراص أصوات معارضيه إذ أوقف العمل ببرنامج يتم فيه دعوة محاضرين في الجامعات الإسرائيلية وكتاب لمخاطبة الجنود كما أبعاد المحللين العسكريين عن ميكروفونات إذاعة الجيش وعزل الميجر جنرال «يشعياهو غافيش» الذي ضايق شارون بسبب ظهوره المتكرر على التلفزيون الإسرائيلي كمحلل عسكري .

وبحلول آب 1982 حاصر شارون بيروت وقذفها بحمم نيران مدفعيته ودباباته وطيرانه في أكثف نيران شهدها العالم بعد الحرب العالمية الثانية، سقط في أتونها الآلاف من المدنيين بين قتلى وجرحى، ليحقق هدف إخراج قوات منظمة التحرير الفلسطينية من بيروت .

وفي 23 آب 1982 انتخب البرلمان اللبناني قائد القوات اللبنانية المتحالفة مع إسرائيل بشير الجميل رئيساً للبنان خدمة لمخطط شارون بوجود حكومة ستوقع على اتفاقية سلام مع إسرائيل، إلا أن الرياح لم تجر كما تشهيهما سفنه ففي 14 أيلول قتل الجميل في انفجار استهدف المقر العام للقوات اللبنانية. ورغم ذلك لم يتخل شارون عن حلمه رغم موت الجميل ورغم التحذيرات بأن الكتائب سواء بالجميل أم غيره لن تتحالف مع إسرائيل ولن توقع اتفاقية سلام معها .

باغتيال الجميل وجهت الدعوة لارتكاب مجازر بحق المدنيين الفلسطينيين العرّال الذين فقدوا الحماية بخروج القوات الفلسطينية من بيروت، وبالفعل فقد وفرّ شارون كل الظروف والأسباب لتنفيذ مجزرة

صبرا وشاتيلا إذ سمح للكثائب بالدخول إلى المخيمين تحت شعار تطهير المخيمات من عناصر مسلحة متخفية فتم ارتكاب أبشع مجزرة شهدتها التاريخ البشري المعاصر وعلى مدى ثلاثة أيام بحق مدنيين لا حول لديهم ولا قوة وتحت سمع وبصر ومساعدة قوات شارون التي كانت تحكم الحصار على المخيمين .

هذه المجزرة هزت الرأي العام العالمي، وفي إسرائيل، أيضاً، إذ خرج المتظاهرون مطالبين بعزل شارون عن «وزارة الدفاع» وسحب الجيش الإسرائيلي من لبنان ما أجبر حكومة بيغن على تشكيل لجنة تحقيق في المجزرة تولى رئاستها القاضي اسحق كاهان التي حملت شارون لاحقاً مسؤولية مجزرة صبرا وشاتيلا وأوصت بتنحيته عن منصب «وزير الدفاع» .

#### قراءة في سلوك شارون السياسي

قراءة تحليلية لشخصية شارون تخلص إلى نتيجة مفادها أنه يجنح إلى حل المشاكل باستعمال القوة وأنه يعاني من الخوف المرضي لأنه لا يثق بأي شخص كان، وعصارة تجاربه تتلخص في أن إسرائيل من دون كل دول العالم هي أرض الفرص اللامتناهية حيث بإمكانه كشارون القيصر أن يكون إلى ما لا نهاية شارون القائد الشرعي والذي أصبح شارون رئيس الوزراء أو بعبارة الصحفي المتطرف «أوري دان» الملتصق بشارون منذ منتصف الخمسينيات «من لم يرد أريك قائداً للأركان سيحصل عليه وزيراً للدفاع، ولم يرده وزيراً للدفاع سيحصل عليه رئيساً للوزراء» .

وكان قيصر إسرائيل قد انتخب عضواً في الكنيست في كانون اول العام 1973 ليستقيل بعد مضي عام واحد على انتخابه . وعمل مستشاراً خاصاً لإسحاق رابين في الفترة بين حزيران 1975 وآذار 1976 . وقبل الانتخابات الإسرائيلية العامة في 1977 أسس شارون حزباً سياسياً أطلق عليه اسم «سلام صهيون» الذي وصل إلى الكنيست بعضوين فقط، إلا أنه سرعان ما اندمج ثانية بالليكوند مقابل تعيينه وزيراً للزراعة ورئيساً للجنة الوزارية لشؤون الاستيطان، حيث اعتبر الأب الروحي لحركة غوش أمونيم (كتلة الإيمان) الاستيطانية المتطرفة .

والسمة الأساسية لشخصية شارون تمثلت باستفزاز زملائه الوزراء وتحدي مسؤوليه منذ دخوله في حكومة مناحيم بيغن الأولى العام 1977 وحتى سقوط بنيامين نتنياهو في العام 1999 . ويقول عنه سياسيون إسرائيليون ممن عملوا معه أنه يفتقد إلى روح العمل في إطار فريق ويتقن، فقط فن التهكم الجارح ويشعر دوماً بالخوف المرضي عندما يكون موضع هجوم أو انتقاد في صفوف حزبه ما يجعله يتصرف بقسوة تصل إلى حد الوحشية .

وانتصف مسلك شارون في حكومة الليكوند الأولى في العام 1977 بالجموح اللامتناهي، إذ شكل عيزر وايزمان هدفه الأول في مسعى منه لإزاحته عن كرسي وزير الدفاع والجلوس بدلاً منه . فخلال فترة المفاوضات مع مصر للتوصل إلى اتفاقية سلام اتهم شارون وزير الدفاع بأنه يعرض المصالح الأمنية الإسرائيلية للخطر . ولم يسلم حتى مناحيم بيغن من لسان شارون السليط وملاحظاته الساخرة، ففي

أعقاب استقالة وايزمان من منصب وزير الدفاع اتهم رئيس وزرائه بأنه تخلى والى الأبد عن أمن الدولة عندما احتفظ بيغن بحقيبة الدفاع وحجبها عن شارون الوزير بلا حقيبة آنذاك .  
وبعد انتصار الليكود في انتخابات العام 1981 عينه مناحيم بيغن وزيراً للدفاع ما أثار جدلاً واسعاً بين مؤيد ومعارض في إسرائيل، حيث رأى البعض أن شارون غير مستقل سياسياً وسيقود إسرائيل إلى مغامرات ومآزق في حين اعتقد آخرون أن «ملك إسرائيل غير المتوج» سيجلب لإسرائيل مفاجآت سارة على اعتبار أنه إذا كان هناك شخص ما سيجلب السلام لإسرائيل فإنه شارون بالتأكيد، وبالفعل فإن شارون لم يخيب آمال مؤيديه إذ سرعان ما عمل على مفاجأتهم بحرب لبنان السارة!

شارون رئيساً لوزراء إسرائيل

بهزيمة بنيامين نتنياهو في الانتخابات العامة أمام إيهود باراك العام 1999 واعتزاله الحياة السياسية فتح الباب على مصراعيه أمام أرئيل شارون لقيادة الليكود وبالتالي للمنافسة على منصب رئاسة الوزراء . ولم يكن انتظار شارون طويلاً فقد هزم باراك في الانتخابات المبكرة لمنصب رئيس الوزراء في مطلع شباط 2001 .